

الفصل التاسع

الدائرة الحماسية

تمهيد

شجع النجاح الباهر الذي أحرزته الإلياذة والأوديسافيا بين القرنين الثامن والسادس قبل المسيح كبار شعراء تلك العصور فهبوا يحاولون محاكاة هوميروس ولكنهم رأوا أن درتيه قد اقتصرتنا على حادثتين اثنتين من حوادث التاريخ الأسطوري وهما حرب تروادة وعودة أوديسوس ، بل إن الإلياذة لم تعرض إلا لجزء ضئيل من حرب تروادة فأرادوا إنشاء قصائد مختلفة تشبه قصيدتي هوميروس في المنهج ، ولكنها تعالج تصوير جميع الحوادث والوقائع منذ اجتماع السماء مع الأرض إلى عودة أوديسوس إلى إيثاكيه ، أي أنها تجمل كل الأساطير المتعلقة بالآلهة وما امتزج بها من الوقائع البشرية كما يقول بْرُكلوس . ولشمول هذه القصائد تاريخ الأساطير كله دعوها بالدائرة أي المجموعة الكاملة المحيطة بكل شيء ، غير أن هؤلاء الشعراء لم يمنحوا من العبقرية والمقدرة على الإتيقان مامنح هوميروس ، فكان خير ما في قصائدهم المعلومات التي تستقي منها ، لافيتها الشعرية ولا جمالها الفني ، ولا إبداعها في التصوير ، ولا خيالها الخصب ، ولا أسلوبها الرصين ، إلى غير ذلك من خصائص الدرتين الهوميروسييتين .

وهما يكن من شيء فإن تلك القصائد الجامعة قد فقد أكرها ولم يبق منها إلا عناوين بعضها وشذرات متفرقة من البعض الآخر . ولقد حدثنا فتيوس أحد بطارقة القسنتينية في القرن التاسع في مؤلفه الذي عنوانه « المكتبة » « Bibliothèque » - وهو دراسة واسعة في

الأدب الهيليني خصص منه قسماً لتحليل « خرسثومانيا^(١) » تأليف بركلوس - أن هذا الأخير قد رأى تلك القصائد كاملة واقتطع منها ملخصه المذكور وقد ارتاب النقاد المحدثون في ذلك الزعم واستندوا في ريبهم هذا إلى أنهم عثروا على نسخ أخرى في أحد أديرة أورشليم وفي مكتبة القاتيكان تشبه ملخص بركلوس مما يدل على أن هذه النسخ جميعها نقلت من ملخص سابق عليها دون أن تتاح لأصحابها فرصة الاطلاع على الدائرة الأصلية .

وسواء أصحت رواية فتيوس أم لم تصح فإننا مدينون لبركلوس بهذه المعلومات الواسعة التي أنبأنا بها في هذا الملخص والتي سنسير على ضوئها في الحديث عن هذه القصائد .

تنقسم هذه الدائرة إلى ثلاث مجموعات : المجموعة التروادية ، وهي كل ما يتعلق بحرب تروادة ، والمجموعة الثيبية ، وهي ما يتعلق بأساطير ثيبا ، ومجموعة أخرى تتألف من قصائد متفرقة في موضوعات شتى لا يجعلها جذيرة باسم المجموعة إلا انضواؤها تحت علم التشتت إذا صح أن يكون للتشتت علم ، والآن إليك هذه المجموعات في شيء من البيان :

(١) المجموعة التروادية

يحدثنا الأستاذ كروازيه - مستنداً إلى بركلوس وإلى مصادر أخرى - أن هذه المجموعة تتألف من ست قصائد : الأولى الأثيوبية ، والثانية تقويض إليوس ،

(١) خرسثومانيا هي مجموعة من الشعر الهيليني اشتملت على ملخص للدائرة الحماسية وغيرها من منتجات العصر الغنائي وقد نسبت هذه المجموعة إلى بركلوس ولم يعين فتيوس هذا المؤلف فاختلف فيه المؤرخون ، فذهب فريق منهم إلى أنه بركلوس الفيلسوف الإسكندري الذي عاش في القرن الخامس بعد المسيح . وذهب فريق آخر إلى أنه أحد النحويين الذين دعى عدد منهم باسم بركلوس . وأياً ما كان فإن مؤلف خرسثومانيا قد قسم فيها قصائد الدائرة الحماسية ولخصها وعين مؤلف كل واحد منها وحدد مكان وزمان مولده .

والثالثة الإلياذة الصغيرة ، والرابعة الأنشودة الكبريسية^(١) والخامسة العودة ، والسادسة القيليغونية .

فأما القصيدة الأولى وهى الإثيوبية فمؤلفها - فيما يرى بركلوس - هو « أركتينوس » Arkynos . الملىتى^(٢) . وتتألف هذه القصيدة من خمس أنشودات ، وهى تشتمل على مناظر طويلة تموزها الوحدة والتماسك ، وكان القدماء يذيلون بها الإلياذة ويعتبرونها ملحقاتها . ومجملها أن « پَنَئِسيلىه » ملكة الفوارس تَقْدُمُ مع صواحبها إلى معمعان القتال ليساهمن فى المعركة فى صف الترواديين ، فلا يجد أخيلوس بدا من قتلها فيفعل رغم أنه كان مغرمًا بها . وهنا ينبرى له « ثِرُسيثيس » Virgilios . الهجاء ويصب عليه قوارص لذعه ويسخر من حبه فلا يكون من أخيلوس إلا أن يقضى عليه لساعته . وعلى أثر هذا يحتدم بين رؤساء الأكيان جدل لا ينطفى لهيبه إلا عند ما يقود أوديسوس أخيلوس إلى جزيرة « ليبوس » ليطهر فيها من هذا الإثم الذى اقترفه بقتله هيلينياً .

وبعد انتهاء هذا المنظر يعرض علينا منظرًا آخر نشاهد فيه « بمنون » بن « تيتون » ملك مصر وإثيُپيا - وكانت أمه « أورور » إلهة الفجر - يرسله والده إلى الحرب لمعونة « برياموس » فيأخذ منها بنصيب يكون من نتائجه أن يقتل « أنتيلوخوس » بن نستور ثم يقتله أخيلوس ، غير أن هذا الأخير لا يلبث أن يهلك بسهم باريس الذى يصوبه أبولون

(١) الكبريسية نسبة الى كبريس وهى الجزيرة المشهورة الآن بـ « قبرص » وقد اعتاد الكتاب القدماء استبدال الكاف والتاء الاغريقيتين بالالف والعريتين إشعارا بإخضاع الكلمات الأجنبية للنطق العربى فكتبوا قبرص بدلًا من « كبريس » وقسطنطينية بدلًا من « كستنتينية » وجاراهم المحدثون فى هذا التقرر الذى لا مبرر له فكتبوا إيطاليا بدلًا من إيطاليا ، بل قد أفرط أحد أعضاء المجمع اللغوى السابقين فى هذه الغالاة فاقترح أن تكتب كلمة : اللاتين بدلًا من كلمة اللاتين . ولذا كنا نعت هذا العمل الذى يأباه المنطق لوجود كلا الحرفين فى اللغة العربية ولا تنفاء الضرورة الداعية له ، فقد عولنا على ألا يستبدل الكاف والتاء الفرنجيتين بالالف والعريتين إلا فيما تعذر علينا العدول عنه كسقراط وأفلاطون وأرسطو وماشا كل ذلك .

(٢) هو شاعر عاش فيها يظهر حوالى منتصف القرن الثامن قبل المسيح .

إلى عقبه الذى لا يمكن أن يموت إلا منه^(١) . ثم ينتقل بنا المؤلف إلى معسكر الهيلين فيقدم إلينا الاحتفال بجنائزتي : « أنتيلوخوس » و « أخيلوس » ثم يشهدنا نزاع أوديسوس وأياس على أسلحة أخيلوس ، ذلك النزاع الذى ينتهى بفوز أوديسوس بهذه الأسلحة . وأخيراً يختم المؤلف قصيدته بمنظر موت أياس .

ويرى النقاد أن هذه القصيدة لا بأس بها وأنها تتقن محاكاة الإلياذة ولا تنأى عنها كثيراً فى تصوير أخلاق أبطالها ويمزجون هذا إلى أن أركتينوس مؤلفها كان تلميذاً لهوميروس .

ومن آثار هذه القصيدة أنها هى التى ألهمت « بنداروس » كثيراً من قصائده العاطفية و « إسكيلوس » بعض مآسيه القيمة .

وأما القصيدة الثانية وهى تقويض إليوس^(٢) فمؤلفها هو « أركتينوس » مؤلف سالفقتها وهى تحتوى على قصة الجواد الخشبى الذى يخترعه أوديسوس ويختفى فى داخله هو وعلية الأكيان ، ثم يضمونه إلى جانب أسوار تروادة ليدخله الترواديون إلى مدينتهم . وعلى أثر ذلك يخرجون منه فيتمكنون من احتلال المدينة ، ولكن الأكيان يرون أن الترواديين قد لا يأخذون هذا الجواد فتفشل حيلتهم فيرسلون « مسينون » - وهو أحد الرجال المشهورين بالتمويه والتضليل - ليخدع الترواديين ويروج لهم إدخال الجواد فينجح فى مهمته وبعد هذا المنظر يعرض علينا المؤلف منظرأ آخر يرينا فيه « لاووكون » بن برياموس وهو كاهن أبولون يزهرق روحه وروحي ولديه ثعبان مرعب ، وبعد ذلك يشهدنا اقتحام الأكيان المدينة والمعركة التى تحدثم بين الفريقين ، والمذبحة التى يحدثها المنتصرون بين

(١) تحدثنا الأساطير أن ثيتيس والدة أخيلوس أرادت أن تصيره خالداً خملته وهو لا يزال طفلاً وغمسته فى نهر « إستكس » الذى لا يموت من انغمس فيه ، فتم لها ما أرادت ، ولكن الموضع الذى كانت تقبض عليه من عقب قدمه ظل جافاً فقدر أن يكون هو المكان الوحيد الذى تمكن إصابته منه . وقد كان أبولون بالطبع يعرف ذلك ، فصب السهم إلى هذا الموضع بالذات فكانت القاضية . وقد أصبح المحدثون الآث يضربون المثل بذلك فيقولون لمن عرف مقتل خصمه : إنه قد كشف منه عقب أخيلوس .

(٢) إليوس هى تروادة .

المنهزمين . وأخيراً يصور لنا الحريق الذى يشعله الأكيان فى مدينة خصومهم . وبالإجمال تحتوى هذه القصيدة على الحوادث والمناظر التى رسمها « فِرْجلُوس » فى الكتاب الثانى من الإينيه .

أما القصيدة الثالثة - وهى الإلياذة الصغيرة - فقد اختلفت الآراء فى مؤلفها ، فتنسبها قوم إلى « كيناثون الإسبرى » وعزاها آخرون إلى « لِسَخِيس الليبوسى » . وزعم فريق ثالث أن مؤلفها هو « ديودور الإبرى » ولكن النقاد المحدثين يرون أنها ألقت بعد الإلياذة الكبرى وبعد « الإثيوبية » وأن عدة مؤلفين قد اشتركوا فى وضعها . وأيا ما كان فإن بركلوس يلخص لنا منها أربع أناشيد ، ولكن يبدو أن القصيدة أكثر من ذلك ، إذ يروى لنا أرسطوفىها حادثتين لا توجدان فى تلخيص بركلوس ، وهما هدم « إليوس » وتوزيع الأسيرات ، وهذا يدل على أن النسخة التى وقعت فى يد بركلوس كانت ناقصة . وعلى أى حال فاجملها - حسب تلخيص هذا الأستاذ - هو أن المؤلف يبدأ قصيدته بتصوير مقدّم « فيلُكتيتيس » فيحدثنا أنه يقدم إلى تروادة مسلحاً بأسلحة هيركليس فيقتل باريس ثم يرسم لنا كذلك وصول « نِيْپْتُوليموس » بن أخيلوس الذى يحتفظ له الوحي بالنصيب الفاصل فى الاستيلاء على تروادة ، فيحدثنا أنه يشترك فى مبارزة مع « أوريلوس » آخر حلفاء الترواديين فيقتله ، وعلى أثر ذلك تصبح المدينة - بعد فناء كل حلفائها - لا تعتمد إلا على قوتها الخاصة فيستमित سكانها فى الدفاع عنها ، وهنا يحىء دور الحيل التى يستخدمها أوديسوس بإرشاد أثينيه للقضاء على هذه المقاومة والتى أولاها دخول هذا البطل مدينة تروادة فى صورة متسول ليتجسس على أهلها . وثانيتها نقل تمثال أثينيه من تلك المدينة لنزول عنها الحماية السماوية فيسهل تدميرها . وثالثتها صنع الجواد الخشبى الذى تحدثت عنه القصيدة السابقة . ورابعها بعثة « سينون » المضلل ليقنع الترواديين بالاستيلاء على الجواد . وخامستها تظاهر الأكيان بالانسحاب والرحيل . وبعد تصوير هذه الحيل يرسم لنا المؤلف نتائجها فيرينا إدخال الجواد إلى المدينة وعودة الأكيان إلى مكانهم الأول بإشارة كانوا قد اتفقوا عليها مع سينون . وأخيراً أخذهم الترواديين على غرة وإعمال السيوف والخناجر فى أعناقهم .

و يعلق النقاد المحدثون على هذه القصيدة بأنهم يلحون فيها أحاسيس مختلفة ، وعواطف متباينة ، قصد المؤلف رسمها والإلحاح عليها في الأنشودة الأخيرة . فمن ذلك مثلاً أنه أراد إبراز مجد أوديسوس ونسبة الفضل إليه في ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزه الهيلين على أعدائهم ، وإثبات الجاذبية والحب بين مينيلائوس وهيلينيه ، ووصم نيتوليموس بالخلو من الرحمة والعواطف النبيلة إذ يعزو إليه قتل الطفل « أستيانكس » بن هكتور .

أما الرابعة - وهي القصيدة السكبريسية - فقد اختلفت النقاد كذلك في مؤلفها ، فنسبها القدماء إلى هوميروس ، ونفى هيرودوتوس هذه النسبة ، ولكن لم يعين مؤلفها الحقيقي . ومال أرسطو إلى إلحاقها بالإلياذة الصغيرة . وفي القرن الأول بعد المسيح عزاها المتأدبون إلى شاعر كبريسي يدعى : « استاسينوس » ولكن عدداً كبيراً من الأدباء يردون هذا الرأي ويعتبرون القصيدة غفلاً من مؤلفها وإن كان عنوانها يشهد بمتابعتها بصلة إلى جزيرة « كيريس » (قبرص) .

ومهما يكن من شيء فإنها تصعد فوق سلم التاريخ إلى القرن السابع . وقد قسمها أدباء العصر الاسكندري إلى إحدى عشرة أنشودة . ومجماعها - حسب تلخيص بركلوس - أن المؤلف يصور لنا بدياً زوس يتحاور مع ثيتيس محاورة نفهم منها أن الرأي قد استقر على إشعال حرب تروادة للوصول إلى موت عدد من بنى الإنسان الذين زادوا على الحد المقدر . وبعد ذلك يرسم لنا المؤلف منظرآ آخر يرينا فيه عرس ثيتيس الإلهة البحرية الجميلة مع بليوس ملك إفتيا ثم يصور لنا تلك الخسومة الحادة التي تشعل إيريس « Eris » إلهة النزاع والفرقة لميها أثناء حفلة العرس بين الإلهات الثلاث : أثينيه وهيريه وأفروديتيه بسبب التفاضل في جمالهن وما يتلو هذه الخسومة من احتكامهن إلى باريس وحكمه لأفروديتيه بالتفوق وما ينجم عن ذلك من إهداء أفروديتيه « هيلينيه » إلى حاكمها المحبوب ، وسعى مينيلائوس وشقيقه أجاممنون لدى ملوك الأكيان لمساعدتها على استعادتها من خاطفها ثم اجتماع الرؤساء في أوليس . وبعد ذلك يحدثنا المؤلف عن الحملة الأولى التي يضلها سوء قيادتها فتتجه إلى « تتراني » بدلاً من تروادة فيردها « تيليفوس » ملك « ميزي » عن تلك البلاد .

ولكن أخيلوس قبل انسحاب الحملة يطعنه فيجرحه . وعلى أثر ذلك يتشتت الأسطول شذر مذر . وإذ ذاك تقاد ثيتيس سفن ابنها أخيلوس إلى جزيرة « إسكيروس »^(١) ثم يُبرئ أخيلوس غريمه تيليفوس الذى طعنه على أن يقاضى منه كثمان لهذا الإبراء إرشاد أسطولهم ، وبعد هذا يعود بنا المؤلف إلى أوليس فيشهدنا اجتماعا آخر بين رؤساء الهيلين ثم يصور لنا الموافقة على التضحية بإيفيجينيا ، ولكنه ينبئنا بأن أرتيميس تظاهرت بنحرها ثم تخفيها عن أعين الحاضرين وتنقلها إلى « توريس » وبعد هذا المنظر يمرض علينا مناظر أخرى متعاقبة كوصول الأكيان إلى جزيرة « تينيدوس » والحادثة التى وقعت لـ « فيلوكتييتيس » فيها وهجران الجيش إياه وحيداً جريحاً ، وكوصولهم إلى الشاطئ التروادى الذى يحميه هكتور ، وكالمعارك الأولى التى يحدث لها فيها بين الفريقين وموت « بروتيسيلاس »^(٢) . وبعد هذه المناظر يصور لنا المؤلف كيف ينزل جميع الجيش الهيلينى إلى الشاطئ وكيف يرسل رؤسائه إلى الترواديين سفارة تطلب إليهم رد هيلينيه إلى زوجها فيرفضون . وعلى أثر هذا الرفض يبدأ حصار مدينتهم ثم يحدثنا فى الأناشيد الأخيرة عن مفاخر أخيلوس فى السنين الأولى للحصار كاستيلائه على عدة مدن حول عاصمة تروادة ويختتم هذه المناظر بأسره : « بريسيتيس » و « كريسيثيس » اللتين رأينا فى الأناشود الأولى من الإلياذة أنهما كانتا سبب مشاجرة أخيلوس وأجاممنون .

(١) تحدثنا الأساطير أن ثيتيس والدة أخيلوس تطلع على أسرار القدر فترى فيها أن ابنها المحبوب سيهلك فى حرب تروادة إذا ساهم فيها ، فتريد أن تعصمه من هذا الصير فتقاد سفنه إلى جزيرة إسكيروس . ولما كان — وهو شاب — يشبه الفتيات فى جاهن وقوامهن ، فإنها تلبسه ملابس فتاة وتضعه بين بنات ملك هذه الجزيرة فيظل هناك زمناً ، ولكن الوحي ينبئ الأكيان بأن الاستيلاء على تروادة بدون مستحيل ، فيكلف رؤسائهم أوديسوس بإحضاره فيذهب إلى تلك الجزيرة ، وهناك يحس بأن تمييزه من بين الفتيات عسير ، فيعمد إلى حيلة يحملها أنه يستحضر أساور وخواتم وسيافاً ويضع كل هذا فوق منضدة فتنتفض الفتيات على الخلى تختار كل واحدة منهن ما يروقها إلا فتاة واحدة تسرع إلى تناول السيف فيتحقق أوديسوس أن هذه الفتاة الظاهرية هى أخيلوس فيعرض عليه مرافقته إلى تروادة فيقبل .

(٢) بروتيسيلاس هو أول هيلينى وضع قدمه فوق الشاطئ التروادى ، وكان الوحي قد تنبأ بأنه — للحصول على الانتصار — يجب أن يقتل أول هيلينى ينزل إلى شاطئ العدو ، فلما علم بروتيسيلاس بتلك النبوءة قبل هذه التضحية وتقدم الجيش إلى النزول فوق الشاطئ ليكون موته مفتاح النصر .

أما الخامسة - وهى قصيدة العودة - فإن بركلوس ينسبها إلى مؤلف يدعى : « هجياس التريزىنى » ولكن بعض الكتاب الآخرين يميلون إلى القول بنسبتها إلى مؤلف مجهول . وعلى أية حال فإن تاريخ تأليفها يرجع - فيما يظهر - إلى أواخر العصر الحاسى ، وهى أقل أهمية وأصغر قيمة من سالفاتها . وتتألف من خمس أناشيد ، ومجملها أنه لانتكاد حرب تروادة تضع أوزارها حتى يحدث من بعض المنتصرين ما لا ترضى عنه أثينيه فتثور تائرة غضبها ، وتصب عليهم جام انتقامها ، فتحدث فى عقلى أجاممنون ومينيلاؤوس اضطراباً يحول بينهما وبين تنظيم برنامج العودة فيرتحل الرؤساء بدون نظام لا يعرف أحد منهم عن الآخرين شيئاً ، فنتسور وذيوميديس يسلكان فوق صفحة البحر طريقاً مباشراً فيصلان إلى بلادها فى سلام ويسر ، ومينيلاؤوس لا يكاد يغادر تروادة حتى تفاجئه عاصفة هوجاء تحطم أكثر سفنه ثم تقذف به وبالخمس سفن الباقية له إلى مصر ، وكلخاس يقود عدداً من رجال الجيش الهيلينى ويرتحلون براً ويظلون يتابعون شواطئ آسيا الصغرى حتى يصلوا إلى كولوفون ، وهناك يموت رئيسهم ويدفن .

أما أجاممنون وأياس بن أوالبوس ، ومعهما فريق من الرؤساء فإنهم يصممون على الرحيل رغم ذلك الإنذار القاتم الذى يبلغهم إياه شبح أخيلوس ، ولا يكادون يفعلون حتى تحدى بهم العاصفة فتقذف بأياس إلى صخرة كبيرة فى البحر فيهيج ويتحدى الآلهة ويعاندون . وهنا تثار تائرة بوسيدون من هذه الوقاحة ، وفى الحال يفتت الصخرة التى يمتصم بها أياس من الأمواج فيغرق لساعته ، ولكن أجاممنون تحميه هيريه وتنقذه من العاصفة فيصل سالماً إلى وطنه ، بيد أنه لا يكاد يضع قدمه فى قصره حتى يهوى فى الأحبولة التى تنصبها له زوجته « كليميتمندستريه » الأثمة وعشيقها « إغيثوس » ابن عم أجاممنون .

أما نيبتوليموس فإنه يرتحل إلى بلاده سيراً على الأقدام فيلتقى فى طريقه بأوديسوس ويظل يكافح متاعب السفر حتى يصل إلى مملكة والده ومقر جده « پليوس » . وبعد هذه المناظر كلها يصور لنا المؤلف عودة مينيلاؤوس من مصر بعد أن أقام فيها أعواماً طويلة (م ١١ - الأدب الهيلينى)

وتشاء المصادفة أو القدر أن يكون يوم عودته هو نفس اليوم الذى ينتقم فيه «أورستيس» لوالده من والدته الخائنة وعشيقتها المجرم .

أما القصيدة السادسة - وهى التيليفونوسية^(١) فمؤلفها فيما يرى بركلوس هو : «أوجامون»^(٢) القورونائى « وقد ألفت فى عهد التدهور ، ولهذا كانت ضئيلة القيمة منحة المستوى تدل على أن مؤلفها شاعر عادى ، وتسم العصر الذى كتبت فيه بميسم الظلمة والتأخر وإسفاف الذوق الأدبى . ومجملها أن المؤلف يصور لنا أوديسوس فى « بيلوبنيا » ثم يرتحل به معنا إلى « التسبروتيين » حيث نشاهد أوديسوس يتزوج بمليكتهم « كآليديكيه » ثم يعود به إلى إيثاكيه بعد بضع سنين من هذا الزواج . وفى نفس اللحظة التى يصل فيها إلى شاطئ تلك الجزيرة يلتقى بـ « تيليفونوس » وهو - فيما يخيل إلى هذا الشاعر السخيف - ولد قد أنجبه أوديسوس سابقا من « كركيه » الساحرة التى رأينا فى الأوديسا أنها حوّلت بعض أصحابه إلى خنازير فيضرب هذا الشاب والده دون أن يعرفه فيقضى عليه ثم يتبين له أنه والده فيأسف على فعلته ويدفنه ثم يتزوج بينيلبييا ويزوج والدته كركيه بتيلياخوس . وفى النهاية تمنحهم هذه الأخيرة الخلود .

على هذا النحو تنتهى هذه القصيدة . ولا ريب أن أقل موازنة بين صورة أوديسوس فيها وصورته فى الأوديسا توضح تمام التوضيح الفرق بين الشاعرين فتشهد للأول بالعبقرية والدقة والمهارة وحسن الذوق ، وتسلب الثانى كل هذه الصفات .

(ب) المجموعة الثيبية

قد تكون هذه المجموعة الثيبية أقدم من المجموعة التروادية ، ولكن هناك أسباباً فنية حملت النقد على تقديمها عليها فى الدرس والتحليل والنقد . فمن تلك الأسباب أنها أعظم منها قيمة وأقدر على إثبات روح العصر الذى ألفت فيه ، وأن المصادفة قد حفظت لنا منها

(١) هى نسبة إلى تيليفونوس بن أخيلوس .

(٢) هو شاعر من الدرجة الثالثة عاش فى النصف الأول من القرن السادس .

الشيء الكثير بفضل تلخيص بركلوس الذي أشرنا إليه آنفاً ، وهذه كلها مزايا لم تحب الظروف المجموعة الثيبية بشيء منها . ومما يكن من الأمر فإننا سنحاول أن نلم هنا بطرف من هذه المجموعة لنقدم إليك منها صورة كافية بقدر المستطاع ، لإعطائك فكرة عنها .

تألف هذه المجموعة كسابقتها من عدة قصائد ، أهمها الثلاث الآتية :

(١) الثيبية . (٢) الإيبيفونيات . (٣) الأوديبوسية . وإليك نبذة عن كل واحدة منها :

فازت القصيدة الثيبية في العصور القديمة بشهرة لم تتح لغيرها من قصائد هذه المجموعة . ونسبها القدماء إلى هوميروس ، واستلهم منها بنداروس بعض مقطوعاته الرشيقه ، وإسخيولوس وسوفوكليس وأوريبيديس كثيراً من مآسيهم الفاتنة . ومجملها أن « أدرستوس » ملك أرجوس يدفعه زوجا ابنتيه « تدْيوس » و « بولينيكيس بن أوديبوس » إلى إرسال حملة حربية إلى مدينة ثيبا لمقاتلة ملكها إيتيوكليس شقيق الثاني في فعل ، وتتجه الحملة إلى ثيبا ، وهناك يشتعل لهيب القتال بين الشقيقين ، ولكن الشذرات الباقية من هذه القصيدة لاتسمح لنا بتتبعها حتى نرى نتائجها ، وإنما كل ما ترينا منها هو استمطار والدهما الشيخ اللعنة عليهما لاشتبا كهما في حرب وعدم احترامهما الأخوة ، ولولا ما بقى لنا من المآسى التي استلهمت موضوعها من هذه القصيدة لظللنا نجمل هذه الأسطورة الشيقة ، وسنرى تلك المآسى حين نعرض للعصر الأثيني .

أما القصيدة الثانية وهى الإيبيفونيات فهى محاكاة ضعيفة للقصيدة الأولى ، ومؤلفها مجهول ، وموضوعها ينحصر في وصف الحملة الثانية التى بعثت إلى ثيبا وتشتمل على ذكر مفاخر القائمين بها ، وهم من أبناء زعماء الحملة الأولى وأحفادهم ولكن أكثريتها الغالبة قد فقدت .

وأما القصيدة الثالثة وهى الأوديبوسية فقد نسبها القدماء إلى كينانون الأسبرتى ، وهى تشتمل على تاريخ أوديبوس وما نسج حوله من أساطير مؤثرة وأفاصيص ساحرة ، ولكنها

فقدت جميعها ولم يبق لنا من نصها كثير ولا قليل ، وإنما كل ما نعرفه عنها هو ما ذكر من أوصافها في كتب الأدب القديمة وما استلمه الماساويون منها في مسرحياتهم الخالدة .

القصائد المتفرقة

تعتبر الهيركليسية أشهر قصائد هذه المجموعة ، وقد عزاها الأدباء القدماء إلى « بيسندروس »^(١) الرودسي « وقد فقدت كلها ولم يبق لنا منها إلا حديث القاريخ عن قيمتها الأدبية وأهميتها فيما نسج حول هيركليس من أساطير ، ولكن هناك ظاهرة تاريخية هامة ألمت بهذه القصيدة لا ينبغي إهمالها وهي أن أدباء الإسكندرية لم يدرجوها ضمن قصائد الدائرة الحماسية مع شهرتها ، وهذا حادث يدعو إلى التفكير ، ولم يستطع النقاد المحدثون أن يجدوا له حلاً إلى الآن .

ومن هذه القصائد المشتتة أيضاً قصيدة استيلاء هيركليس على « أوخالياً » وقد نسبها القدماء إلى هوميروس ، ولكن يبدو أن هذه النسبة خاطئة ، وأن الاسكندرانيين قد صححوا نسبتها إلى « كريوفيلوس » . وموضوعها تلك الحملة الشهيرة التي قام بها هيركليس ضد مدينة أوخالياً التي كان ملكها « أوريتوس » قد وعده بتزويجه من ابنته ثم أخلف وعده فأعلن هيركليس عليه الحرب واستولى على مدينته .

ومن هذه القصائد أيضاً قصيدتا التيتانوماخية والداناؤوسية اللتان تحتوى أولاهما على أسطورة زوس ، والتيتانوس التي سنراها عند هزiodوس ، وتشتمل ثانيتهما على أسطورة « داناؤوس » وهاتان القصيدتان قد فقدتا ولم يبق منهما شيء .

(١) هو شاعر موهوب عاش في القرن السابع .

obeikandi.com

obeikandi.com

نظرة تمهيدية

رأينا في الفصول الماضية أن الشعر الهوميروسي سواء منه ما كان لهوميروس حقاً أم ما نسب إليه يمتاز كله بأنه يصور المثل العليا في الشجاعة والذكاء والحكمة والسياسة والأمانة والوفاء والحب الأبوي والأموي والبنوي والزوجي ، وأن الناقدين قد اعتبروه نوعاً من أنواع التسلية لما اشتمل عليه من سمو نادر التحقق في النوع الإنساني ، ورأينا أيضاً أن هذا النوع المتقدم قد نشأ وترعرع في الجزر الإغريقية الأسبوية .

بيد أن إغريقيا الأوروبية لم تلبث هي الأخرى أن أنتجت شعراً حماسياً ، ولكنه أقل سذاجة وتعلقاً بالمثل العليا ، وأكثر واقعية ، يُفَضَّلُ تصوير ما هو كائن على محاولة التشبث بما يجب أن يكون . وهو بهذا يمتاز أيضاً عن الأول بأنه تعليمي قد اشتمل على بعض المعارف الدينية والأخلاقية التي هي برهان رقي الأمم وانتقالها من دور السذاجة إلى دور القواعد المحددة ، والقوانين المنظمة ، فبعد أن كان شعر الدور الأول يقتصر مثلاً على تصوير شجاعة أخيلوس وهكتور ، ودهاء أوديسوس ، وخطرة أجاممنون ، وهدوء نيسطور ، وجبن باريس ، ووفاء بينياييا وأندروماخيه في شيء من البساطة أخذ شعر الدور الثاني يروي تعليمات أو طقوساً دينية لا بد من معرفتها وتطبيقها .

ولكن هذا ليس معناه - كما يلاحظ الأستاذ كروازيه - أن شعر الجوالين كان خالياً من المعارف ، إذ أنه عرض للماضي فرسه رسماً جيداً ، واثن كانت صورته الظاهرة خيالية فإنه يشتمل في أعماقه على قيمة تاريخية ، من الخطأ إهمالها أو الإغضاء عنها . وفوق ذلك فإن تلك اللوحات الفاتنة التي صور فيها الأهواء والعواطف والأحاسيس الإنسانية لا يمكن أن يمر بها القارئ دون أن يتزود بألوان من الثقافة يتعذر جمودها ، وإنما معناه أن التعليم لم يكن مراداً لمؤلفي الشعر القديم ، وأن غايتهم كانت تنحصر في تمجيد جلائل الأعمال ، وإبداء مافعله أجدادهم في صور فخمة وروايات ساحرة ، وكانوا يرمون قبل كل شيء إلى

امتلاك قلوب سامعيهم ، فحملهم هذا على التنقيب عن المواقف النادرة والأفعال التي تأسر النفوس وتميز القلوب ، وهكذا نجحوا في تصوير تلك اللوحات المثالية التي اقتطعوا موضوعاتها من أساطيرهم الشفوية ثم سلطوا عليها سلطان خيالهم فألبسها ثياباً غاية في الحسن والفتنة . وكذلك الحال فيما يتعلق بهذا النوع الجديد من الشعر ، فهو ليس قاصراً على الشؤون التعليمية وإلا لكان جافاً ثقيلاً ، بل لما كان شعراً أصلاً ، وإنما غايته الأولى التي قصد إليها هو التعليم ، فسواء أكان مشتملاً على مواعظ أخلاقية ، أم على قواعد زراعية ، أم على معلومات في الملاحة والفلك والكهانة ، أم على تاريخ الآلهة وسير الأبطال ، فإن غرضه الأول من هذا كله هو أن ينقش في رؤوس قرائه هذه المعارف ليحفظوها ويمضوا عليها بالنواجذ ، وبهذا يكون قد تحقق له غرضان جليلان : الأول تعليم الأمة وتنقيفها ، والثاني تسليتها التي كانت هي الغاية الوحيدة في شعر الدور الأول ولكن الغرض الجوهرى الذى له السيادة هو التعليم .

لا ينسب هذا النوع الجديد من الشعر إلى مدرسة تعليمية تربط زعماءها صلة معينة أو غاية محددة اتفقوا فيها بينهم على تحقيقها ، وإنما ألفه شعراء متباينو المشارب والأذواق ، وإن كانوا جميعاً من إفريقيا القارية . وهنا تبدو لنا ظاهرة لا ينبغي إغفالها ، وهى أن تباين البيئة الطبيعية من جهة ، وتقدم العصر من جهة أخرى هما اللذان أحدثا ذلك الفرق بين هذين الشعرين ، وإليهما كذلك يعزى اختلاف الغايتين ، فقد ساد في الشعر الأول الخيال والحرية والهوى والسطوع ، وغلب في الثانى العقل والتأمل والتقيد بالقوانين ، والتقرب من الواقع والدخول في باب النكتة المعجبة والسخرية اللاذعة .

لم يصل إلى أيدي الناقدين من شعر هذا الدور شيء قبل هز يودوس ، لأنه قد أملت به نفس الظروف التى أملت بالشعر القديم ، فسبق هيز يودوس شعراء آخرون أقل منه قيمة وأصغر شأناً رسموا له الخطط ووضعوا البذور الأولى للشعر التعليمى ، ثم جاء هو بعد ذلك فأفاض عليه من عبقريته ما سار به في طريق السكال هذا الشوط البعيد الذى نشاهده على نحو

ما حدث في الإلياذة والأوديسا تماماً ، وإلا فكيف يكون من الممكن أن يبدأ الشعر التعليمي بمثل منتجات هز يودوس بغثة دون تمهيد ولا إعداد ١ ؟ .

كما كشفنا منبع الإلياذة والأوديسا في الأناشيد الدينية ، كذلك يجب أن نبحث عن مصدر الشعر التعليمي بين سطور هذه الأناشيد نفسها .

ومن آيات ذلك أننا كثيراً ما نلتقي بأساطير دينية في شعر هز يودوس كما نلتقي بتاريخ أسرار الآلهة مفصلاً في بقية الشعر التعليمي ، وكذلك كثيراً ما نلتقي فيها بحكم عقيدية ، ومواعظ أسطورية . فمثال ذلك أن هيرودوتوس يحدثنا أن شخصاً اسبرتيا يدعى « جلوكوس » يستشير الوحي فيما إذا كان يستطيع أن يستولى على ودبعة أودعها عنده شخص آخر وأن يتخذ القسم المزيف وسيلة لهذا الاستيلاء ، فيجيبه الوحي قائلاً :

« لكن القسم له ولد ليس له اسم ولا ذراعان ولا رجلان ، ومع ذلك هو يطير ويتعقب الجاني إلى أن يحدق به فيسحقه هو ونسله وبيته كله ، ولكن نسل من يحترم قسمه هو على العكس من ذلك سعيد من عام إلى عام » .

ونحن إذا نظرنا في البيت الأخير من هذه الإجابة التي وردت على لسان الوحي ألقينا نصاً في شعر هز يودوس ، وهذا كله يحمانا على الاعتقاد بنشوء هذا اللون من الشعر عن تلك الأناشيد الدينية .

ومن خصائص هذا الشعر التعليمي أيضاً أنه تكثرفيه الخرافات الشعبية ، والأمثال العرفية ، والقصص الصغيرة التي تخفى بين طياتها مبادئ أخلاقية سامية ، والتي كان الهيلين يحبونها كثيراً ، لانتقامها مع طباعهم ، وانسجامها مع ميولهم .